الباب الرابع

مركز المسئولية الإنسانية
بين المشيئتين القديمة والحادثة

وفيه ستة فصول :

الفصل الأول : المشيئة الإلهية وأثرها على الإنسان في نعمة الاختيار الحر .

الفصل الثانى : مناقشة الاعتذار بالقدر والمشيئة والاحتمالات الرئيسية بين المشيئتين .

الفصل الثالث : المشيئة الإلهية وخواتيم العمل .

الفصل الرابع : وضوح الاعتبارات المختلفة لإطلاق كلمة المشيئة في القرآن .

الفصل الخامس : النهى عن الكلام في القدر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المشيئة الإلهية
وأثرها على الإنسان في نعمة الاختيار الحر

فيما مضى من حديث كان تركيز النصوص قويًّا على حرية الإنسان واختياره ، وربما يخطر بالبال أننا هنا سنتحيز لحرية الإنسان في مقابلة المشيئة العليا ، ونعوذ بالله سبحانه من ذلك ، وحاشانا أن نفعله ؛ لأننا لو فعلنا فقد هلكنا ، فضلاً عن أننا نكون قد أهدرنا تمامًا حرية الإنسان نفسه حين نقطعها عن موجدها وواهبها ، وماذا يصبح لنعمة الحرية في الإنسان من بقاء إذا نحن عزلناها عن مصدر وجودها وبقائها وامتدادها ؟

وإذن فالتحيز الواعى لحرية الإنسان هو في التحيز لمشيئة الله أولاً وآخرًا . أليس الاختيار الحر في الإنسان مخلوقًا لله سبحانه كسائر خلقه ؟ .

فكيف لا يكون أمرًا بدهيًّا هيمنة المشيئة العليا على كل ما في الوجود ؟ .

قضية مفتعلة :

هذا الصراع الذى تورط فيه بعض الذين عالجوا قضية الجبر والاختيار ، أو التسيير والتيسير في السؤال المشهور عن الإنسان : هل مخير أم مسير ؟ حين وضعوا مشيئة الله سبحانه وجهًا لوجه أمام مشيئة عباده ، هذا الصراع المفتعل لم يكن له من داع أو مسوغ ، إذ كيف يمكن المقابلة بين علم الله القديم وبين علم مخلوقيه ، أو بين قدرته وقدرتهم ومشيئته ومشيئتهم ؟

إن القاعدة الاعتقادية التى يتوقف عليها الإيمان ، ويعرفها السواد الأعظم من أمة الإسلام تقول بكلمة الوحى : « ليس كمثله شيئ ، وهو السميع البصير » ومنها كانت القاعدة المعروفة : كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

أو ليست صفات المولى سبحانه كذاته ، أي ليس كمثلها صفات ؟

ونحن إذا انطلقنا من الذات العليا وصفاتها إلى آثار المشيئة في الخلق ، أمكننا أن نلمس الفوارق المذهلة بين آثار عمل مشيئة الله سبحانه وبين آثار المشيئة الحادثة ، إننا نريد أن نقرِّب إلى الأذهان عن طريق الآثار ، هو ما نملك النظر فيه ، أن عمل المشيئة الربانية ليس كمثله عمل لمشيئة الحوادث ، بمعنى أنه لايجوز أن يتخيل أحد ، أن مشيئة العبد عندما تتوجه لاختيار ما ، فإنها ستجد مشيئة الله في انتظارها تعترض طريقها وتصارعها حتى تصرعها ليبقى الإنسان مغلولاً بلا مشيئة .

إن هذا التصور عقيم لا يتأتى إلا من ساذج المعرفة بصفات الله القديمة وتنزهها عن مثل العوارض التى لا تكون إلا بين مشيئتين حادثتين .

وإذا انتهينا إلى هذه النتيجة ، فما هو دور المشيئة الربانية إذن في الحرية الإنسانية ، خاصة في اختيارها ومشيئتها ؟

ولمعرفة الجواب سنلتزم بأمرين :

أولهما : أن نستلهم النصوص القرآنية التى وردت مركزة على مشيئة الله سبحانه .

ثم التى وردت مركزة على مشيئة الإنسان .

ثم التى جمعت الحديث عن المشيئتين معًا .

فتلك التى أرست وقررت القاعدة النهائية في هذه القضية ، مع الاستعانة بالسنة في جزئيات الموضوع .

ثانيهما : أن نتقيد فيما وراء الغيب بالنص القرآني أو النبوى ، على أن نستعمل في الإيضاح التمثيل بآثار المشيئة في الحوادث المنظورة والملموسة ، وفي نهاية عرض نصوص القرآن والسنة والتمثيل بالآثار ، سنحاول بيان الخطر المفروض على الخوض في القدر والمشيئة من جانب البشر ، ولماذا كان ذلك من هدى الإسلام ؟

المجموعة الأولى : التى ركزت على مشيئة الله سبحانه :

تتضح في هذه الآيات اتجاهات يجب أن تستقر في عقيدة كل مؤمن ، عن هيمنة المشيئة الإلهية وتأثيرها المطلق في هداية الخلق إلى الخير أو إلى غير ذلك .

١ ـ قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٦ ـ ٧] .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة :٤١] .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام :٢٥]

٤ ـ وقال تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

٥ ـ وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص :٥٦] .

٦ ـ وقال تعالى : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] .

نظرة في هذه الآيات :

إن هذه الآيات ـ وأمثالها في القرآن كثير ـ تعطينا للوهلة الأولى عند النظر إليها

الاعتقاد اليقيني في أن دور المشيئة الربانية في الهداية الإنسانية دور أساسي ، بيد أن هذا الانطباع ـ عند التأمل ـ لايمنع إضافة معان جديدة يتكامل بها فقه الموضوع ، ومع إعجاز النصوص في آداء دورها كاملاً في عقيدة المسلم نحو مشيئة الله سبحانه ، غير أنها من نواح أخرى نجدها في سياق محكم معجز يراعى بقية المعانى التى تبرزها الآيات الأخرى عن مشيئة الإنسان ، أو عن استيعاب المشيئة الربانية للمشيئة الإنسانية ، ولنلق نظرة سريعة على هذه الآيات .

الآية الأولى : قررت أن الإنسان هو الذى بدأ باختيار الكفر ، كما هى صيغة الفعل الماضى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، فكان جزاؤهم على هذا الكفر الذى حرصوا عليه وأدمنوه هو عدم استفادتهم من إنذار الرسول كما أن هذا التقرير كان مواساة لرسول الله ﷺ وإشفاقًا عليه .

في هذا المعنى روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من أنه السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول [1] .

هذا وقد ذكر ابن كثير بعض الآثار الأخرى ثم قال : والمروى عن ابن عباس في رواية على بن أبى طلحة أظهر ، ويفسر ببقية الآيات التى في معناها .

وفي معنى مجازاتهم على كفرهم بالختم وعدم الاستفادة بالإنذار ، قال القرطبى : وأجمعت الأمة على أن الله ﷻ قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال : ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ، وإذا كان القرطبى قد نقل هذا

---

(١) تفسير ابن كثير أوائل سورة البقرة .

الإجماع [١] ، فمعنى ذلك أن الانطباع الأساسى أو الرئيسى الذى تنطبع به النفس عن المشيئة عند قراءة الآية لم يمنع الأمة من ملاحظة اعتبارات خاصة بمشيئة الإنسان تحظى بدرجة الإجماع عليها أيا كان المقصود بهذا الإجماع ، وأيا كانت درجته .

موقف السنة :

فى الحديث الصحيح الذى أورده القرطبى وابن كثير عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا** » [٢] .

قال ابن جرير : والحق عندى فى ذلك ما صح بنظيره الخبر ، عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذى قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾** » [٣] .

ثم قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ﷺ « **أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره فى قوله**

---

(١) تفسير القرطبى وغيره أوائل سورة البقرة .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ وأحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه والترمذى .

(٣) هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم ابن اسماعيل والوليد ابن مسلم ، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ ».

إن هذا المنهاج فى تفسير آيتى سورة البقرة ، يمكن تطبيقه فى كل النصوص القرآنية التى جاءت على هذا النحو ، وسنطبقه فى تفسير الآية الواحدة والأربعين من سورة المائدة ، والخامسة والعشرين من سورة الأنعام اللتين أسلفنا ذكرهما ، ونترك قياس باقى النصوص المشابهة عليهما .

آية المائدة :

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ هذا النص جزء من الآية ، فإذا قرأنا الآية من أولها تبين لنا أن إبراز دور المشيئة الإلهية لم يمنع من النص فى صدر الآية على سلوك الإنسان الذى استحق من أجله عقوبة الفتنة وفساد القلوب ، وها صدر الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [المائدة:٤١] ، وهنا إضافتان فى منتهى الأهمية :

أولها : أن أعمال الكافرين بلغت مرحلة مستفحلة تسببت فى حز الرسول ﷺ مما حدى بالوحى أن يطلب إليه ﷺ الرفق بنفسه بترك الأحزان .

ثانيها : وصف الكافرين بالمسارعة فى الكفر ، وفى كلمة ﴿ يُسَٰرِعُونَ ﴾ من الدلالة ما فيها على الاندفاع فى الضلال إغراقا منهم فى البعد عن الإيمان ، وهذه الإضافة والتى قبلها إنما كانت نتيجة اختيارهم وإصرارهم .

ثم يأتى جزء من الآية بعد ذلك يضيف شيئا آخر يصف عمل فريق من هؤلاء المسارعين فى الكفر ، يقول تعالى فيه : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ ، فهم يسارعون فى الكفر خفية ، بينما يظهرون الإيمان خديعة وهذا باطن

مشين ، وسلوك خطر .

ويأتى بعد ذلك فى الآية الكريمة جزء جديد عن الفريق الثانى من هؤلاء ، يبين فوق مسارعتهم فى الكفر طائفة من الأعمال السيئة التى اختاروها فيقول تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ فهذه أوصاف أربعة خبيثة : الكذب ، والتآمر مع العدو ، والتحريف فى كلام الله عن سوء قصد ، وتغليب الهوى على الوحى ، والإصرار على ذلك كله فى عناد ومكابرة .

وقد وصفوا فى صدر الآية التالية بأنهم : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ ﴾ [المائدة:٤٢] ، وهى أوصاف على أوزان المبالغة والاستمرار . من هنا كان جزاؤهم بما يستحقون إنصافا وعدلا وحكمة ، من جنس ما قدموه لأنفسهم ، لقد كانوا يسارعون إلى معانى الضلال والكفر والفتنة فكان جزاؤهم أن تغلب عليهم محبة الفتن وأجوائها : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أليس ذلك حصاد ما غرسوه بأيديهم من الإصرار على جو الكذب والمسارعة حتى اعتادوها وألفوها .

ثم أليس قوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ ، عقابا متجانسا ، وجزاء وفاقا لفساد قلوبهم حين قالوا : ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ﴾ ، فاختاروا وارتضوا وآثروا رجس الكفر والحقد والهوى والخديعة على طهارة الإيمان والصدق والإسلام .

والخلاصة : أن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة قدم الانطباع العام من حيث الاعتقاد المطلق فى مشيئة الله مع الحفاظ على المعانى الرئيسة الأخرى ذات العلاقة

بين المشيئتين ، فمشيئة الله لها الفاعلية المطلقة فى كل شيء ، وهى تتعهد سلوك الناس ومشيئتهم كما تتعهد نواة التمر أو بذرة الحنظل ، فكلاهما تؤتى ثمرتها بإذن الله ، وما تستطيع الثمرة الحلوة أو المرة أن تنبت دون مشيئة الله مع وضوح الجهد الإنسانى فى مسألة الزراعة ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد .

لكن النظام والعدالة والحكمة تأبى كلها مجتمعة ، أن تختلط الأمور ، أو تنهار الضوابط ، فإذا بالتمرة مرة كطعم الحنظل ، وإذا بالحنظل حلو كطعم العسل .

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:١٨ـ٢٨] .

أما آية الأنعام :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥] ، فيكفى أن تقرأ بعض ما قبلها وما بعدها من الآية العشرين إلى السادسة والعشرين حتى تتضح كل الاعتبارات أما قبلها فقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢٠، ٢١] .

وأما بعدها فقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْوَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٦] .

وإننا واجدون فى هذا السياق المواقف التالية :

١ـ أنهم عرفوا القرآن كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك كفروا به مكابرين معاندين .

٢ـ أنهم افتروا على الله الكذب وكانوا من الظالمين .

٣ـ وأنهم عرفوا القرآن عن طريق الكتب السابقة وعن طريق استماعهم للنبى ﷺ ومع ذلك لم يؤمنوا .

٤ـ وأنهم لا يتأثرون بالآيات الكثيرة والحجج المتعددة . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها .

٥ـ وأنهم ينهون غيرهم عن الإيمان وينأون بأنفسهم عن ذلك .

ومن هنا كان جزاؤهم وعقابهم من جنس أعمالهم هذه ، فكان نفس الجزاء من أوصافهم وامتدادا طبيعيا لأعمالهم ، وفق القاعدة العامة فى صلة مشيئة الله سبحانه بكل مخلوقاته حيث يكون الجزاء مرحلة متطورة من أطوارهم التى ارتضوها وسعوا إليها ، واحتالوا كل حيلة للحفاظ عليها بكل أنواع المكر والدهاء ، وصدق الله العظيم : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣] .

المجموعة الثانية :

الآيات التى تُركز على مشيئة العباد :

هذه الآيات يغلب عليها طابع التركيز على مشيئة العباد ، والسياق العام لهذه الآيات يوضح ـ غالبا ـ الطريقين الحسن والسئ ويبين آثارهما ونتائجهما ، ثم يدع أمر الاختيار لمشيئة الإنسان ، ويشتمل هذا الأسلوب عادة على معنى لتهديد والوعيد ، وهذا التهديد ينفى التخيير الشرعى بمعنى الإباحة ، أى ينفى أن يستوى

طرفا الفعل الممكن فعلا وتركا ، ولكنه لا ينفى بحال التخيير الواقعى والفعلى فى فطرة المشيئة الإنسانية وطبيعتها ، وهذه بعض الآيات نسوقها دون تعليق أو شرح ، حيث كان التعليق والشرح على مجموعة الآيات الماضية منصبًّا فى الواقع على معانى هذه الآيات بحكم أنه كان توضيحا لجوانب مشيئة الإنسان التى روعيت حين الحديث عن مشيئة الله سبحانه ؛ ولذلك فمع إعادة النظر للأحاديث النبوية أو الآثار وآراء المفسرين فى مجموعة الآيات السابقة نجد أنها شرح لصلب موضوع الآيات الآتية :

١ ـ قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ﴾ [الكهف:٢٧ ـ ٢٩] .

وينبغى التركيز فى التأمل على المعانى الآتية :

أ) تأثير الصحبة الصالحة والأمر بلزومها والبعد عن قرناء السوء ، وفى هذا تأثر وتأثير إنسانى ، يتعلق بالمشيئة والاختيار فى الإنسان ، خوطبنا فيه بالأمر والنهى إعمالا لهذه المشيئة واستثارة لها .

ب) أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، وفيه إبراز رعاية المشيئة الإلهية .

ح) واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وفيه رعاية إبراز المشيئة الإنسانية .

د) فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وفيه رعاية إبراز المشيئة الإنسانية أيما إبراز ، وكون التخيير على سبيل التهديد يؤكد إيجابية المشيئة الإنسانية فى تحمل تبعة اختيارها السيء ولا ينفيه .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل:١٧ ـ ١٩] .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٦ ـ ٣٨]

٤ ـ وقال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر:٥٤ ـ ٥٥] .

٥ ـ وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ:٣٩] .

هذه خمس آيات أبرزت حرية المشيئة الإنسانية فى تحديد مسيرتها نحو السبيل الذى تبغيه ، ومن السهل أن نلاحظ أن هذه النصوص كسابقتها لم يمنعها إبراز مشيئة الإنسان من أن تكون هذه المشيئة فى الإطار الحق الذى يراعى الاعتبارات الخاصة بالقاعدة الأساس فى ضرورة خضوعها لمشيئة الله سبحانه ، فهى التى اقتضت أن تكون مشيئة العباد بهذه القدرات ، ومفطورة على نعمة الاستطاعة والاختيار كى تكون أهلا لحمل أمانة التكاليف والقيام برسالة الدين .

ومما يبرز مشيئة الإنسان أيما إبراز ، تهديد الله سبحانه للعصاة والكافرين بسلب المشيئة منهم عن طريق حرمانهم من الهدى بالعمى فى مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٦٦] .

قال ابن عباس فى تفسيره لو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟! وفى مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٧] .

قال الحسن البصرى وقتادة فى تفسيرها : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ ، أى إلى الأمام ، ولا يرجعون إلى الوراء

بل يلزمون حالا واحدا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

فما هو المعنى المستفاد من هذه المقابلة بين ما يهدد به من سلب لمشيئتهم وإرادتهم فى الآية الأولى وسلب قدرتهم البدنية فى الآية الثانية ـ أى سلب المشيئة والسلوك ـ وبين نعمة الواقع الذى يعيشونه بمشيئة وقدرة ؟ .

لا شك أن المعنى المستفاد فى صالح إبراز المشيئة الإنسانية والقدرة الإنسانية .

المجموعة الثالثة : أبرزت دور المشيئتين :

هذه آيات غلب عليها ذكر موقفين للمشيئة الربانية من أفعال العباد . . أحد الموقفين افتراضى وممكن ، والموقف الآخر واقعى ونافذ ، يذكر غالبا بصفات توضح حكمة الله فى إيثار مشيئته اتخاذ هذا الموقف مع ذكر الصفات التى ترد العباد إلى العقيدة الصحيحة فى إرجاع كل أمر إلى مشيئة الله سبحانه .

وإذا كانت المجموعة الأولى من الآيات أبرزت دور المشيئة الربانية بينما أبرزت المجموعة الثانية دور المشيئة الإنسانية ، فإن المجموعة الثالثة أعطتنا صياغة لدور المشيئتين فى موقف واحد غاية فى الوضوح والدقة والإعجاز وهذه بعض الآيات :

١ ـ قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] .

نجد فى هذه الآية الكريمة أربعة مواقف للمشيئة الإلهية ، اثنين قبل الاستدراك «بلكن» واثنين بعدها ، بيد أننا نلاحظ أن الموقفين السابقين على الاستدراك موقفان مفترضان افتراضا على سبيل الإمكان ، بينما نجد الموقفين المستدركين حاصلين بالفعل .

الموقف الأول : المفترض عبر عنه النص الكريم : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ

مِنۢ بَعۡدِهِم ﴾ فالمشيئة معلقة عن منع الاقتتال بلو ،لكن النص صريح فى إفادته قدرة الله على منع الاقتتال مع إفادته أن الله سبحانه لم يشأ ذلك المنع فوقع الاقتتال .

وتأتى « لكن » الاستدراكية لتقرر الموقف الثانى وهو الموقف الواقعى للمشيئة ، أى أن الله إذا لم يشأ منع الاقتتال فإنه سبحانه قد شاء بالفعل منح عباده حرية الاختلاف ، وهو طريق يؤدى إلى الاقتتال على الحق والباطل قتالا قد يصل بالناس إلى درجة الإيمان والكفر : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ .

أما الموقفان الثالث والرابع : فبوجه عام يقال فيهما ما قيل فى سابقيهما ، ولكن هناك إضافة على جانب كبير من الأهمية ، تلكم هى أننا لو جمعنا ما بعد « لكن » الأولى ومابعد « لكن » الثانية لأصبحت الآية نصًّا مباشرا فى أن حرية الاختلاف الإنسانى فى الاتجاه نحو الإيمان والكفر هى نفسها الفعل الذى أراده الله وقدرته مشيئته ففى الأولى : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ .

وفى الثانية : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ .

بمعنى أن الجملتين عبرتا عن شيء واحد ، ولكن من زاوتين ، أو بتعبير أكثر دقة : أعطتنا الجملتان صياغة لدور المشيئتين فى موقف واحد غاية فى التكامل ، يوضح فى عمق وبساطة أن مشيئة الله نافذة غير معطلة ولا عاجزة حين لم تمنع الاقتتال ؛ لأنها عن حكمة بالغة آثرت أن يكون الناس على النحو الذى أراده الله من حيث إتاحة الفرصة لهم كى يعبروا عن وجهات نظرهم التى اختاروها ، بل ويدافعوا ويقتتلوا من أجلها . وهكذا فلن يكون هناك حيف أو قيد على حرية الإنسان ، ولا توجد ـ فى نفس الوقت ـ أدنى شبهة فى نفاذ مشيئة الله سبحانه .

تلك معادلة جلاها القرآن الكريم فى نصف آية ، عرضت فيه قضيةواحدة مرتين من خلال اعتبارين :

اعتبار المشيئة واختيارها : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ﴾ .

واعتبار المشيئة الخالقة لهذه المشيئة وما تختار : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ؛ ولأنها قضية واحدة كان صدر الاعتبارين متحدا ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ ، أو ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ، فإذا كانت هذه المقدمة المتحدة ـ قبل لكن ـ تثبت قدرة المشيئة الربانية على ترجيح فعل الممكن المفترض مع صرف المشيئة عن تحققه بالفعل ، فإن ما بعد « لكن » يفيد أمرين :

الأول : أنه لا يحدث فى ملك الله إلا ما يريد ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

والثانى : أن هذا المراد لله هو أن تكون مشيئة الناس شتى ، ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ .

وذلك هو عين الكمال وفيه التوفيق والصواب والتنسيق الكامل بين العدل فى مسئولية العباد مع نفاذ المشيئة العليا وهيمنتها على كل ما فى الوجود .

٢ ـ ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ [المائدة:٤٨] .

فى الآية الأولى : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ ، أو ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ وفى هذه الآية : ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ .

وإذن فما يريده الله فى الآية الأولى بقوله : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، يدور فى الواقع حول مشيئة البشر من اختلافها أو ابتلائها ، وفق قوله ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ ، أو ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ أى بأن يقوم العباد بدورهم الحر المختار بين الطاعة أو المعصية للتكاليف الشرعية وأحكام الدين .

وقوله سبحانه فى هذه الآية ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ عام يشمل ما هيأه الله الكريم المنعم

من النعم على عباده وما أعطاه ومنحه لهم من الوسائل التى تجعلهم جديرين بتحمل هذه الأمانة .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٣] .

ونلاحظ فى هذه الآية أنها استعملت الاعتبارين الخاصين بالمشيئة العليا ومشيئة العباد فى مستدرك واحد ، فقوله تعالى : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ، مساو لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، مساو لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ ﴾ ، فجمعت هذه الآية ما ذكر منجما فى غيرها ، وحين يجمع السياق ما تفرق ، فإن ذلك يكون أقوى يقينا فى تفسير النص بالنص من حيث إن القرآن يفسر بعضه بعضا .

على أن استعمال كلمتى : ﴿ يُضِلُّ ﴾ و﴿ وَيَهْدِى ﴾ فى هذه الآية بدلا من : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أو بدلا من ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ ، فى الآيتين السابقتين ، إنما يشير إلى أصل القضية وأساسها باستعمال الكلمات الدالة على نتائجها ، ونعنى بالنتائج هنا كتابة الضلال والهدى كنتيجة لاختيار الإنسان بعد ابتلائه ، فمثلا كلمة « يضل أو يهدى » نتيجة من النتائج ، وكلمة « يبلوكم » وسيلة من الوسائل ، بينما كلمة « يريد » شاملة لهذين الأمرين وغيرهما ، ولا يخفى أن الابتلاء ووسائله وغاياته وإمكاناته من حرية واختيار وعلم ، كل ذلك من صنعة الله وخلقه .

٤ ـ وقريبا من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى:٨] .

٥ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٨ ـ ١١٩].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٥ ـ ٣٦].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢ ـ ١١٣].

وفى هذه الآية كلمة يجب الالتفات إليها وتلك هى كلمة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ فهى كلمة قاطعة الدلالة فى أن المسئولية الإنسانية عن الأعمال قوية البنيان والقواعد، إذ لا يختار العباد أعمالهم فحسب؛ ولكنهم يرضون ويحبون ما اختاروه وأرادوه فتكتمل مسئوليتهم عنه.

٩ ـ وعلى هذا النسق وفى هذا الاتجاه الواضح جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩].

تلك هى القاعدة العامة فى المشيئة الإنسانية كما أرادتها مشيئة الله أن تكون، وهذه حكمتها البينة: فطرة على الحرية يزينها العقل، ويضبطها الوحى، وعليها بعد البلاغ أن تقبل الإيمان أو تعرض عنه بطريق الاختيار الحر، ثم يأتى دور المساءلة والجزاء.

المجموعة الرابعة: من آيات المشيئة تبرز القاعدة النهائية:

هذه المجموعة من الآيات تتجه إلى تقرير القاعدة النهائية فى المسألة فى الصورة التى يجب أن تكون عليها عقيدة المسلم، وقد وضعناها رابعة المجموعات فى

الترتيب إشارة إلى أنها خلاصة مسلمة بيقين لما سبق إبرازه فى آيات المشيئة حتى انتهينا فى بحثها إلى هذه النتيجة التى ندركها بالعقل والقلب والبصيرة ، لتكون شعارا لنا فى كل مشيئة أو عزيمة ،وعونا فى كل اتجاه ومسلك ، وأمانا وحصنا فى كل وقت وحين وها هى بعض آياتها .

١- قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

[الكهف:٢٣ ـ ٢٤]

٢- قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:٢٩، ٣٠] .

٣- وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٧ ـ ٢٩] .

سبق أن انتهينا إلى أن دور المشيئة الربانية فى المشيئة الإنسانية ، كدورها فى كل شيء خلقه الله وأوجده ، ذلك أن مشيئة الإنسان كسائر مخلوقات الله سبحانه خاضعة بكل أوصافها وخصائصها وصلاحياتها لمشيئة الله عز وجل ، بل وإن خضوعها لمشيئة الله هوعين وجودها كمشيئة حرة مختارة ؛ لأن الخالق البارئ شاءها كذلك .

وهذا نص من السنة المطهرة يؤيد هذا الاتجاه فى استيعاب النص القرآنى وفق هذا المنطلق الذى اخترناه بتوفيق الله سبحانه .

أخرج البيهقى حديثا مرسلا عن الأوزاعى قال : أتى النبى ﷺ يهودى فسأله عن المشيئة ، فقال الرسول ﷺ : « **المشيئة لله تعالى** » قال : فإنى أشاء أن أقوم ، قال : « **قد شاء الله أن تقوم** » قال : فإنى أشاء أن أقعد ، قال : « **قد شاء الله أن تقعد** » ، قال : فإنى أشاء أن أقطع هذه النخلة ، قال : « **قد شاء الله أن تقطعها** » قال : فإنى

أشاء أن أتركها ، قال : « فقد شاء الله أن تتركها » .

قال : فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال : « لقد لقنت حجتك كما لقنها إبراهيم عليه السلام » ، قال : ونزل القرآن : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر:٥] .

قال البيهقى : هذا وإن كان مرسلا فمن الموصولات فى معناه ما يؤكده .

وإذن فمن الضرورى لتمام الإيمان أن يعتقد المؤمن أن مشيئة الخلق بكل خلجاتها الحرة ومناشطها المختارة فى معية مشيئة الله ، لا تستغنى عنها لحظة ولا أقل منها ؛ لأنها فقيرة محتاجة إليها دوما وفى كل حين ، وهذا من تفسير هذه الآيات من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وهكذا إذا نحن استوعبنا تفسير هذه الآيات دون تعطيل أو تشبيه لصفة المشيئة الربانية ، ودون إلغاء لعملها فى مشيئة الخلق ، كان استيعابنا لغيرها من آيات المشيئة أيسر وأسهل ؛ لأن منهاج إخضاع كل المخلوقات والحادثات لمشيئة الله هو المنطلق الصحيح الذى لا تبقى معه أية شبهة .

وقد يتضح ما نقول بصورة عملية إذا نحن تأملنا بعضا ولو يسيرا من جوانب آثار المشيئة الإلهية فى مشيئة الإنسان نفسه ، وسيتبين من استعراض مثال عملى مدى احتياج الإنسان لمشيئة الله سبحانه كى تبقى مشيئتنا حرة مختارة .

مثال توضيحى :

حين تتخذ مشيئة الإنسان قرارا بزراعة مساحة من الأرض فماذا يحدث ؟ إنها لا محالة تصدر توجيهات شتى لتنفيذ قرارها . فالأرض تحرث وتشق ، ونعرضها للشمس ونرويها بالماء ، وتهيء المواد العضوية التى تسمى بالسماد ، وننتقى البذور ، ونتحسب للمفاجآت بتدبير المبيدات لمحاربة الآفات والحشرات ، وتتضافر الجهود

لتضع كل شيء فى وضعه ووقته ، وتظل المتابعة النشطة والرعاية الدقيقة من جانب الإنسان حتى يحصل على جنى أرضه وغرسه .

فهل شكا الزارعون مرة طوال فترة الكفاح والعمل أن مشيئة الله عطلت مشيئتهم أو زاحمتها أو انتقصت منها حبة خردل ؟

وإذا كان الجواب بالنفى ــ وإنه لكذلك ــ فهل معنى ذلك أن مشيئتهم قد استقلت بهذا العمل دون مشيئة الله سبحانه ؟

هنا نقول بملء القلب يقينا ، وملء اللسان صدقا : « لا » ، وألف « لا » مؤكدة لنفى استقلال العباد بالمشيئة ، فكل مشيئة إنسانية باشرت صلاحيتها فى الزراعة هى من فيض مشيئة الله ، ومن صنعته وخلقه ، أبدعتها يد الله وأبدعت غيرها معها والناس فى نوم وغفلة .

وقبل أن ندخل فى رعاية الأرض والزرع هل لنا أن نسأل : أرض من هذه تلك التى حرثنا فيها وغرسنا ؟ ومن أين لنا بنور الشمس كى يتخلل التربة ؟ ثم من الذى خلق البذرة ؟ ومن أي مصنع انتقينا أجاودها ؟ ومن أين لنا بالماء لريِّها وسقياها ؟ ومن أجراه وأنزله من المزن وفجره عينا وينبوعا ؟ وأية مشيئة هذه إذا ما الله خلاها ؟

هذا من حيث الأساس والمبدأ ، أما من حيث التفاصيل ، فإننا إذا نظرنا فى رعاية الأرض والزراعة وجدنا أن الجزء الذى باشره الإنسان هو أيسر الأجزاء وأهونها وأبسطها ، وهو أولا وأخيرا من صنعة الله وخلقه ، أما الجوهر الأساسى فى القضية فما باشر الناس منه شيئا .

لقد شق الإنسان الأرض وغمرها بالماء ، لكن العمليات المعقدة داخل التربة وخارجها التى تكسب الأرض مظاهر الحياة من اهتزاز ونمو وتمدد وإنبات ، هذه

العمليات العديدة المعقدة التى بدونها لا تصلح الأرض من الذى باشرها ؟

يتولى القرآن الإجابة فيقول : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٥ ـ ٦] .

وحين يدفن النوى وتطمر البذور ، ويشغل السمار عنها ويخلدون للدور ، فمن يتولى بليل أو نهار إنباتها ؟

يجيب القرآن : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥] .

ثم إن حياة النبات تحتاج إلى تلقيح ، والتلقيح بحاجة إلى التزاوج فمشيئة من تملك وتخلق ؟

يجيب القرآن : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٧ ـ ٨] .

ثم من الذى أكسب النبات طعمه ومذاقه ؟

يجيب القرآن : ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] .

وغير ذلك من أسرار الإعجاز كثير وفير مما يطول الحديث دون الإحاطة به ، لكن الأمر بالإجمال والتفصيل على هذا النحو مرتبط بمشيئة الله سبحانه .

ونخلص من هذا المثل بأن المشيئة الإنسانية ، فى حاجة مستمرة ودائمة إلى المشيئة الربانية تدعمها بأسباب الوجود والحياة ، وهذا الدعم فى الحقيقة إنما هو فى الوقت نفسه دعم لحرية الاختيار فى الإنسان .

والآثار العملية كلها شاهدة بذلك ، من أجل هذا أمكن أن تكون مسئولية العباد عن الجزء الذى تطوله مشيئتهم وقدرتهم قائمة ،وأن يكونوا مسئولين عنه بين يدى الله سبحانه .

*****

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى
مناقشة الاعتذار بالقدر والمشيئة
والاحتمالات الرئيسة بين المشيئتين

يقرر الإسلام أن الاعتذار بالمشيئة الإلهية عن الأخطاء الإرادية انتقاص من نعمة الحرية التى منحها الله للإنسان ، وانتقاص الحرية يناقض اتجاه الإسلام لتنمية المسئولية ، والحرية والمسئولية معا يضعهما الإسلام بكل سهولة ويسر فى المكان العقلى والقلبى الذى ينميهما ويحفظ كيانهما .

فإنه مع ثبوت العقيدة الإسلامية فى المشيئة الربانية وهيمنتها على كل ما فى الوجود ، ومع انبثاق الاعتراف بالجهد الإنسانى ومشيئته من حيث إن إرادة المشيئة الربانية قد اقتضتهما على هذا النحو فقط ترتب على ذلك أنه لا يجوز لأحد أن يعتبر المشيئة الربانية حجة يعتذر بها عن اختياره لغير طريق الخير والحق ، وقد بين القرآن أن الاعتذار بالمشيئة الإلهية عن الأخطاء والشرور محاولة لا جدوى منها ولا تغنى عن قائليها شيئا ، بل إن محاولتهم الاعتذار بذلك سيحسب عليهم فى صحائفهم كذبا وزورا ومكابرة جاهلة لا تستند إلى علم سليم أو اعتقاد صحيح .

قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[المائدة :١٤٨ ـ ١٤٩]

هاتان آياتان : أولاهما تقرر أن اعتذارهم بالمشيئة الإلهية لا يستند إلى علم ، بل هو قائم على الظنون الفاسدة ، والكذب فى الادعاء .

أما الآية الثانية فقد قطعت عليهم بالحجة البالغة أو هامهم وادعاءاتهم فالحجة البالغة لله وحده على كل خلقه ، ولقد حاجت الآية المشركين بنفس حجتهم ، ولو أننا تأمَّلنا مليا قوله سبحانه : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأدركنا أن ما اعتبره المشركون حجة يعتذرون بها عن الشرك اعتبرته الآية الكريمة حجة عليهم .

فهم قد قالوا فى الآية : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ .

وردت عليهم الآية الثانية فقالت : ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

والمعنى الدقيق الذى نلمحه بالتأمل هو أن الله سبحانه لو هداهم بالمفهوم الذى يريدون ، لما كان لهم أن يرجوا ثوابا على خير لم يختاروه لأنفسهم ولا ارتضوا أن يشاركوا فيه بجهد . والدليل على ذلك أنهم يتهربون من مسئولية الشرك بالمشيئة الإلهية التى كتبت عليهم أن يشركوا ، أو مقتضى ذلك أنه لا ينبغى لهم أن يطمعوا فى ثواب ـ إذا هم أطاعوا على طاعة ليس لهم فيها دخل ، إلزاما لهم بنفس منطقهم . وصدق الله العظيم : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس :٩٩] .

فليست الحجة فى أن يرغموا على الهدى كما يزعمون ، ولكن الحجة لله فى أن يرتضوا الإيمان ويختاروه راغبين ، فالله قد خلقهم مهيئين للخير وفق ما أرادت مشيئته سبحانه ، أى أن يشاءوا الخير لأنفسهم ، ويؤثروه على غيره ، فيكون لهم ثواب ما ارتضوه واختاروه .

حقا إن كلا الأمرين مشيئة ربانية ، لكن الأمر الأول الذى يختارونه محتجين ـ أى قولهم : لو شاء الله ما أشركنا ـ هذا الأمر يفقدهم حريتهم واختيارهم وبالتالى يفقدهم حكمة الثواب والعقاب .

أما الأمر الثانى الذى جرى فيهم وفى مشيئتهم بمشيئة الله فإنه يجعلهم أهلا للرضا والاختيار والحرية ويمنحهم كرامة المسئولية عن أعمالهم ويحفظ حكمة الثواب والعقاب .

وقد تردد فى القرآن الكريم استنكار محاولة المشركين هذه فى أكثر من موطن ، منها غير الآية التى سبقت قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف:٢٠ ـ ٢١] .

ويترتب على ذلك أن نخلص بنتيجتين هامتين :

١ ـ إن الله سبحانه لو هدى الناس أجمعين ومنعهم عن الشرور والمعاصى ـ وهذه صورة من صور آثار المشيئة التى يمكن حدوثها ـ لتحول الناس حينئذ إلى كائنات تشبه الملائكة فى هذا الوجه ، ولبطلت بالتالى حكمة التكليف القائم على الاختيار الحر ، ولأصبحوا مجبورين ، وسنستوفى احتمالات علاقة المشيئتين فورا إن شاء الله .

٢ ـ إن الناس إذا اعتذروا بعجزهم بحجة المشيئة والقدر ، فقد جحدوا نعمةً أكرمهم الله بها . تلكم هى نعمة الحرية ، وأنكروا صورة من آثار المشيئة العليا فى مشيئتهم كما هى طبيعة الإنسان التى أرادها الله ، ولما كان لهم حق الطمع فى ثواب على طاعة . وكلها أمور منافية للواقع ومعارضة لنصوص الوحى الصريحة الواضحة .

احتمالات رئيسة لموقف المشيئة الربانية من المشيئة الإنسانية ومناقشتها :

١ ـ ويمكننا أن نستعرض المواقف المحتملة فى علاقة مشيئة المخلوقين من حيث

صواب هذه الاحتمالات أو بعدها عن الصواب من الناحية العقلية كى نصل إلى نفس النتائج التى قررتها نصوص الوحى ، وأول هذه الاحتمالات :

أن تنفذ مشيئة الخالق ملغية مشيئة المخلوق ، والجزء الأخير من هذا الاحتمال فاسد من عدة أوجه نذكر أهمها فيما يلى :

أ) لأنه يترتب على هذا الاحتمال أن تكون الطاعة والمعصية ، والإيمان والكفر ، والإحسان والإساءة ، أمورًا خالية من الجهد الإنسانى فى التوجه والقصد إلى غاية حسنة أو سيئة ، ويصعب حينئذ تحميل الإنسان تبعتها ، بينما هو مسئول ومجزى بها .

ب) ولأنه يترتب عليه أن يكون الإنسان مخلوقا عاجزًا على غير الصورة التى فطر عليها ، وبها امتن الله عليه ، وميزه على كثير من خلقه .

جـ) ويترتب على هذا الاحتمال أيضا معارضة نصوص الوحى الصريحة التى تحدثت عن الإنسان ومشيئته ، وإذن فهو احتمال فاسد ومرفوض .

الاحتمال الثانى : أن تلغى مشيئة الخالق صلاحيتها ـ وهذا محال ـ لتفسح المجال لمشيئة المخلوق كى يتحقق مرادها وينفذ ، ولا شك أنه احتمال أشد فسادا من فساد الاحتمال الأول لعدة وجوه أهمها :

أ) قلب الأوضاع رأسا على عقب يصبح فيها المخلوق المملوك المحتاج أقوى من موجده وخالقه .

ب) فى هذا الاحتمال عجز وتوقف لمشيئة الخالق وهذا محال .

حـ) مجرد القول بذلك معناه هلاك مشيئة الإنسان وفناؤها وسيأتى شرح ذلك فى الاحتمال الثالث إن شاء الله ، وخلاصته أن مشيئة الإنسان لا تستغنى عن مشيئة الله .

د) تعارض هذا القول الإلحادى تماما مع نصوص الوحى والشريعة .

الاحتمال الثالث : أن تقف مشيئة الخالق موقف الحيدة من مشيئة الإنسان فلا تتدخل فى شئونها وهو احتمال بعيد عن الصواب للأسباب الآتية :

أ) القول بحيدة المشيئة معناه المباشر التعطيل لصفة المشيئة عن العمل الدائم المستمر فى بعض مخلوقاتها وهذا محال ، ومشيئة الإنسان لم تخرج عن كونها واحدة من مخلوقات الله التى لا تستطيع العقول حصرها وإحصاءها لوفرتها وكثرتها ، فلماذا نستثنى المشيئة الإنسانية من بين الكائنات الحادثة استثناء يؤدى إلى الطعن بما لا يجوز فى مشيئة الله .

ب) ولأنه احتمال يؤدى إلى إعدام المشيئة الإنسانية ذاتها لعدم قدرة أى مخلوق على الاستقلال فى وجوده بنفسه ، لحاجته الدائمة إلى مشيئة خالقه ، وإذن فالقول بحيدة المشيئة الإلهية معناه فى الواقع هلكة المشيئة المخلوقة .

جـ) تعارض هذا القول مع نصوص القرآن والسنة .

الاحتمال الرابع : أن تقف المشيئة الإلهية من مشيئة الإنسان موقفها من جميع مخلوقاتها لا تتخلى عنها أبدا ، فما دامت مشيئة الإنسان موجودة فهى تتلقى من مُوجدها ما يحفظ عليها هذا الوجود بكل خصائصه ومميزاته التى تميزه عن وجود المخلوقات الأخرى . ونعنى بمميزات وجود المشيئة الإنسانية فطرة الحرية والقدرة على الاختيار والترجيح بين الممكنات التى تصلح موضوعا لنية الإنسان وعمله بالكيفية التى أرادها الله سبحانه ، ولقد شاء الله أن تكون لعباده (مشيئة) فلماذا يحاول البعض أن يجحد فضل الله على عباده عن طريق التشكيك فى فاعلية مشيئتهم ، وماذا نطلق على المشيئة الإنسانية من الأسماء ، وهل نسميها بغير اسمها كى نتمكن من مسخها وإهدارها ؟ وإذا استرسلنا فى هذا الطريق الموحش ، فهل قياسا على هذا المنطق نلغى (علم) الإنسان الذى أثبته القرآن كذلك بقوله : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ،

وبقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وبقوله : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وبقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وبقوله : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ، وقوله عن يوسف : ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، أنلغى علم الإنسان المحدود ، كى نتمكن من إثبات علم الله الذى لا حدود له ؟

أو نتيجه وجهة أخرى فى إثبات مشيئتنا أوعلمنا على حساب عقيدتنا فى مشيئة الله وعلمه .

لا هذا ، ولا ذاك يجوز أن يصدر ، وإنما الاعتقاد الحق والواجب أن الإنسان بكل ملكاته وقدراته وما آتاه الله من نعم وفى مقدمتها المشيئة الحرة المختارة حق له وجوده ، وعلى أساسه كان التكليف والمساءلة .

لكن كل ذلك بجملته وتفصيله ، ووسائله وآثاره خاضع خضوعا كاملا ومطلقا لله سبحانه بل ويتوقف فى وجوده وعمله وعطائه على مشيئة حكيمة رحيمة عادلة تحيط بالخلق كله تلكم هى مشيئة الله سبحانه .

ولعلنا لا زلنا نذكر حقيقة التيسير أو المعونة وما فوقها من درجات ، والاستدراج وما دونه من درجات سحيقة ، وقد شرحنا آنذاك أن موقف المشيئة الإلهية كان فى عون المشيئة الإنسانية دائما سواء اختارت الخير أم اختارت سواه ، ومن أراد مزيدا من التفصيل فليعد إليه فى ما سبق .

وهكذا نستطيع أن نستوعب مطمئنين صحة هذا الاحتمال وسلامته ، ونستبعد الاحتمالات الثلاثة الأولى التى اتضح فسادها وزيفها ، ليبقى الاحتمال الرابع وحده صالحا للبقاء ، ويتحول فى عقولنا واعتقادنا إلى أمر واجب لا يقبل الانتقاء .

*****

الفصل الثالث
المشيئة وخواتيم العمل

سؤال يتفرع عن تقريرنا بالنقل والعقل وجوب الاعتقاد فى رعاية الله للاتجاه الذى يختاره الإنسان حيث منحه الحرية والقدرة التى يستطيع بها مواصلة السعى فى الاتجاه الذى اختاره بل وكفل له ضمان التيسير إلى اليسرى والعسرى فإذا استدام المرء وأدمن طريق الخير تحول التيسير إلى معونة ذات فاعلية أقوى ، وإذا استدام وأدمن طريق الشر تحول التيسير إلى ما هو أكثر فاعلية فى هذا الباب ، وسمى القرآن ذلك بالاستدراج وقد عرفنا آنفا أن المعونة والاستدراج كليهما امتداد طبيعى فطرى لتنمية الخير أو الشر على حد سوا ، كالبذرة الحلوة أو المرة تنمو ثمرتها من جنس حلاوتها ، أو مرارتها .

بيد أن النصوص أشارت إلا حالات قد يعسر مبدئيا تطبيق هذه القواعد عليها ، فالقرآن يقرر أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ومن هنا فقد كان جلَّة الصحابة وكبارهم من أمثال الصديق أبى بكر يقولون : لو وضعت احدى قدمى فى الجنة ما أمنت مكر الله .

وسجلت السنة روايات صحيحة عن رجال قضوا أعمارهم فى عمل صالح ، ثم سبق عليهم الكتاب فختم لهم بعمل غير صالح فكانوا من أهل النار .

كما سجلت صورا أخرى لرجال قضوا كل أعمارهم فى عمل غير صالح ، ثم سبق عليهم الكتاب فختم لهم بعمل صالح فكانوا من أهل الجنة .

وللرسول ﷺ أحاديث صحيحة فى أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، وفى هذا روى البخارى أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لن يدخل أحدا**

عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله! ، قال : « لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب » [١] .

وفى المعنى الأول روى الإمام البخارى فى كتاب القدر أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع : برزقه ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، فوالله إن أحدكم ـ أو الرجل ـ يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » [٢] .

وروى الإمام البخارى فى باب العمل بالخواتيم عن أبى هريرة ﷺ قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر ، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن يدعى الإسلام : « هذا من أهل النار » . فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح فأثبتته ، فجاء رجل من أصحاب النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت الذى تحدثت أنه من أهل النار ، قد قاتل فى سبيل الله من أشد القتال ، فكثرت به الجراح ، فقال النبى ﷺ :« أما إنه من أهل النار » .

فكاد بعض المسلمين يرتاب ، فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح ، فأهوى بيده إلى كنانته فانتزع منها سهما فانتحر بها ، فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله صدق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله ليؤيد

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

هذا الدين بالرجل الفاجر »[١] .

فهذه نصوص ثلاثة ، وغيرها مثلها كثير ، يوهم ظاهرها بأمرين :

١ ـ التقليل من أهمية العمل من حيث الجزاء عنه .

٢ ـ تغير موقف المشيئة فى مساندتها للاتجاه الذى يختاره العبد حتى نهاية الشوط .

وكلا الأمرين يبدو وكأنه لا يتفق مع القواعد التى قررتها القواعد التى أخذناها من القرآن والسنة .

السؤال المطروح إذن :

وإذن قد تشكل هذه النصوص سؤالا هاما يجدر بنا أن نتصدى للإجابة عليه وفق القواعد التى قررناها آنفا عن المشيئة ، ويمكن صياغة هذا السؤال أولا فى الصورة التالية :

هل تقلل هذه النصوص فعلا من قيمة العمل ، فيذهب سدى جهد عمر طويل ، فى لحظات قليلة فى خواتيم حياة المرء ؟

ولماذا تغير موقف المشيئة الإلهية فجأة ، ولم تمض قدما لتأييد مسيرة العبد فى الاتجاه الذى اختاره لآخر المدى ، بل ختم له على غير ما كان من غالب سعيه ؟

الإجابة على هذا السؤال :

والجواب على الشق الأول من هذا السؤال المزدوج هو : أن هذه النصوص لم يقصد منها إطلاقا التقلي من أهمية العمل ، وإنما قصد منها أمور ثلاثة فى غاية الأهمية :

أ) قصد منها ـ أولا ـ تقرير فضل الله على عباده الصالحين ، حيث إن ما أعد الله

---

(١) رواه البخارى .

لهم فى جناته فوق القيم الحقيقية لصالح أعمالهم مهما كان الجهد المبذول فيها عظيما وكبيرا .

فلقد كان من الممكن ـ عدالة ـ أن تكون النعم الدنيوية على العبد هى الجزاء على عمله الصالح « وقصة عابد بنى إسرائيل معروفة » .

وقد كان من الممكن أيضا أن يثاب العبد الصالح على عمله بأن ينعم فى الجنة مقدار الزمن الذى بذله فى الطاعة ، أو مقدار عمره الدنيوى كله .

وكان من الممكن غير ذلك من صور الجزاء العدل .

أما أن يكون الجزاء على النحو الذى بشر به القرآن والسنة فإنما هو محض الفضل من الله على عباده ، وما يدخل أحد الجنة بعمله كما قال رسول الله ﷺ ، وتلك حقيقة لا شك فيها ولا مراء ، والمقصود بها إظهار فضل الله ورحمته حتى نجتهد فى عملنا وجهدنا أكثر وأكثر ، شكرًا لله الكريم على واسع فضله .

ب) وقصد منها ـ ثانيا ـ التحذير من الغرور بالعمل ؛ لأن الغرور بالعمل ينافى الحقيقة التى أشرنا إليها عن فضل الله الواسع من جهة ، ولأنه يؤدى آجلا أو عاجلا إلى فساد الباطن من جهة أخرى ، بينما لا تصلح الأعمال فى الإسلام إلا بصلاح الباطن والنية ، وإذا فسدت النية ضاع العمل كله فلزم التحذير من الغرور بالعمل حرصا على العمل نفسه .

ج) وقصد من هذه النصوص إجادة العمل دائما من حيث إن العبد لا يعلم فى أي وقت من الأوقات تكون خواتيم عمله ، والمؤمن الصادق هو الذى إذا أمسى فإنه لا ينتظر الصباح ، وإذا أصبح فهو لا ينتظر المساء ، ومن هنا كانت الدعوة إلى العناية بخواتيم الأعمال فى منهاج المؤمنين وأعرافهم دعوة حقيقية لصالح أعمالهم فى كل أوقاتهم ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

وإنه لمما يؤكد ويزكى هذا الفهم لتلك النصوص ، وجود نصوص أخرى صحيحة فى السنة تدعو إلى إحسان البداية للأعمال إلى جوار خواتيمها . فأحاديث النية معروفة ، ومثلها النصوص ببداية الأعمال بالبسملة ، وأذكار الصباح والمساء .

والقرآن الكريم نفسه يقول : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم:١٧ ـ ١٨] .

فشملت هذه الآية جميع الأوقات والأمكنة .

ومن تأمل مقاصد هذه النصوص يتأكد لنا ، أن تقليلا من أهمية العمل أو قيمته أمر غير وارد وغير محتمل قطعا ويقينا .

كيف والقرآن نفسه يقول : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢] .

فهل يعقل ، وهل يتأتى أن نضع الحديث الشريف : « **لن يدخل أحدا عمله الجنة** » فى مواجهة النصوص القرآنية دون أن نتعرف على المقاصد التى تتفق مع الآية فيه ؟

والخلاصة : أنه إذا كان فضل الله واسعا فى نسبة دخول الجنة إلى أعمال عباده دفعا لها إلى مستوى أرفع ، فإن سيدنا رسول الله ﷺ يلفت أنظارنا لهذا الفضل الربانى دفعا لنا إلى العرفان والشكران بإخلاص الأعمال لله ، ومن إخلاصها لله إجادتها وإتقانها ، ودفعها قدما إلى الازدهار والنماء .

فالهدف إذن من القرآن والسنة واحد ، وهو الحث على تنمية وتزكية العمل وتحريره من كل شائبة ، ولا يحتمل من قريب أو من بعيد التقليل من أهمية العمل .

الإجابة على الشق الثانى من السؤال :

لم تغير المشيئة الربانية موقفها فجأة من عبد مطيع لتجعله من أهل النار ، وإخبار

النبى ﷺ عن الرجل الذى أبلى فى القتال سلفا بأنه من أهل النار يقضى أساسا على احتمال المفاجأة المتوهم ، ثم إن آذان بلال بأمر النبى ﷺ : « لا يدخل الجنة إلا مؤمن » ، إشارة واضحة إليعدم إيمان هذا المقاتل ، كذلك فى قول الرسول ﷺ وهو يأمر بلالا بالآذان : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وصف جديد يضفى على الرجل المقاتل ملامحه الحقيقية ، فالفجور ـ والعياذ بالله ـ قد عشش فى أعماقه وباض وأفرخ ونما حتى استفحل ، ولم يعد لظاهر أعماله جدوى فى أن تفسح لها مكانا حقيقيا فى نيته وقصده .

بيد أن هناك رواية لهذه الواقعة ذاتها رواها الإمام البخارى فى باب غزوة خيبر تشتمل على إجابة صريحة وتفسير شاف لمثل هذه النصوص وماقد يتوهم من تغير مفاجئ للمشيئة يهدر سابقة عمل طيب لعبد مؤمن .

فقد روى البخارى : عن سهل قال : التقى النبى ﷺ والمشركون فى بعض مغازيه فاقتتلوا ، فمال كل قوم إلى عسكرهم وفى المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاذة ولا فاذة إلا اتبعها فضربها بسيفه ، فقيل يا رسول الله : ما أجزأ أحدهم ما أجزأ فلان ، فقال :« إنه من أهل النار » فقالوا : أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار .

فقال رجل من القوم لأتبعنه ، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه ، حتى جرح فاستعجل الموت ، فوضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه .

فجاء الرجل إلى النبى ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . فقال : « وما ذاك ؟ » فأخبره ، فقال :« إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » .

والشاهد فى قوله ﷺ : « فيما يبدو للناس » فكأن أمثال هذه الحالات تكون فيها الحقيقة شيئا ، والمظهر شيئا آخر ، فما يبدو للناس من الأعمال الصالحة أو السيئة

ليس هو الصورة الحقيقية التى تعبر بأمانة عن أصحابها .

ولقد كان من الممكن أن تظل الصورة غامضة حتى يموت هؤلاء فلا تعرف للناس إلا وقت الحساب يوم القيامة ، لكن فى كشف بعض منها درسا بليغا يهدف إلى تنبيه الناس إلى إحسان الأعمال الظاهرة والباطنة ، وصدق المراقبة فيها لله سبحانه ، والحذر الشديد من أسباب حبوط العمل وسوء الخاتمة وقانا الله منهما ومن كل سوء وأحسن لنا عواقب الأمور وخواتيم الأعمال .

ومن هنا يتبين لنا أن هذه النصوص إنما تضع أيدينا على ما كان يعلمه الله من أسرار بعض خلقه الذين يظهرون غير ما يبطنون فلا نعلم عنهم شيئا ، وقد عوملوا بما يستحقونه من جزاء وصدق الله العظيم : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النجم:٣١ ـ ٣٢] .

*****

obeikandl.com

الفصل الرابع
وضوح الاعتبارات المختلفة
لإطلاق كلمة المشيئة فى القرآن

تطلق كلمة المشيئة أو اشتقاقاتها باعتبارات متعددة تناسب المقام الذى استعملت فيه ورعاية هذه الاعتبارات تضع حدا لكثير من المشكلات الفكرية المتوهمة ، أو التى تنشأ بسبب الخلط بين هذه الاعتبارات ، وترجع هذه الاعتبارات إلى اعتبارين اثنين أساسيين :

١ ـ الاعتبار المطلق القديم ، المستعلى بخلقه وإيجاده لكل مخلوق ، والمهيمن هيمنة حقيقية كلية وجزئية على كل شيء ، ويمكن إطلاق المشيئة بهذا الاعتبار إطلاقا حقيقيا وشاملا على مخلوقات الله سبحانه من كل الكائنات الحادثة وأعمالها وأوصافها ومتعلقاتها جميعا من حيث علاقة المشيئة الإلهية بكل الموجودات الحادثة دون أى استثناء ـ بما فى ذلك مشيئة الإنسان وحريته واختياره وأفعاله ـ فهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وكل موجود من مشيئته سبحانه .

وبناء على هذا فإن هذا الاعتبار قد يطلق مرادا به المشيئة الإلهية البحتة .

وقد يطلق مرادا به المشيئة الإنسانية باعتبارها مخلوقة ومراده لمشيئة الله سبحانه .

وقد يطلق مرادا به المشيئة الربانية والمشيئة الإنسانية .

وقد يطلق مرادا به معان كثيرة متعددة لا تتناهى كثرة لعدم توقف ارتباطها وعملها فى العوالم الواسعة والكائنات الممتدة .

٢ ـ الاعتبار الحادث المحدود المتعلق بمشيئة البشر التى أرادتها مشيئة الله بما فيها من أوصاف تؤهلها لمسئولية الابتلاء كى يتمكن العباد من طاعة ربهم مختارين

راضين لينالوا ثواب اختيارهم وجزاء رضاهم حتى يكونوا من الذين ﷺ ورضوا عنه .

أو يتحملوا مسئولية الاتجاه المضاد بما فيه من شقاء وآلام .

ويمكن إطلاق المشيئة بهذا الاعتبار إطلاقا يتصف بقيود الحوادث والمخلوقات وأهمها وفى مقدمتها الخضوع المطلق لمشيئة الله .

بيد أنها ـ أى مشيئة الإنسان ـ تتميز على غيرها من الموجودات الأخرى بنفس المميزات التى منحتها إياها مشيئة الله من قدرة على اختيار سبيل الخير أو الشر وفق قواعد الرحمة والحكمة والعدل التى اختص الله نفسه بعلم تطبيقها فى مشيئة الإنسان ، وأخبرنا بوحيه الصادق المصدق بأنه سبحانه لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

استعمال القرآن الكريم لقاعدة الاعتبارات المختلفة :

وهذه الإطلاقات أوالاعتبارات استعملها القرآن الكريم استعمالا مطردا وصريحا لا لبس فيه ولا غموض حتى لم يعد هناك مسوغ للجهل بها .

وقد نعى الله على المتكلمين فى القدر والمشيئة ـ دون رعاية أو إدراك منهم لهذه الاعتبارات ـ هذا الجهل المفرط ووصفهم بأنهم لا يكادون يفقهون حديثا « بالتنكير يعنى أى حديث » .

كما وصفهم فى مواطن أخرى بالكذب والادعاء والجهل .

قال تعالى : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩] .

وقبل أن نفصل الاعتبارات المختلفة لنسبة العمل إلى الله وإلى عباده فى هاتين

الآيتين نذكر أولا ما ذهب إليه المفسرون فى هاتين الآيتين خصوصا الذين يعتمدون على التفسير المأثور . فقد اتجهوا إلى تفسير الحسنة بالنعم ، وتفسير السيئة بالنقم ، أى ما كان منهما بلا اختيار من الإنسان .

وقد ذكر ابن القيم آراء السلف هذه ثم قال :

وهذا إجماع من السلف فى تفسير هذه الآية ، ورد ما نسب إلى أبى العالية من تفسير الحسنة والسيئة بالطاعة والمعصية . لكن ابن القيم استأنف يقول : « وقد يقال إن المعنيين جميعا مرادان باعتبار أن ما يوفقه الله من الطاعات فهو نعمة يدخل فيه نعم الدين والدنيا ، وما يقع فيه من المعصية فهو مصيبة » .

والذى يوضح ذلك أن الله سبحانه إذ جعل السيئة هى الجزاء على المعصية من نفس العبد بقوله : ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فالعمل الذى أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه ، فلا معافاة من أن تكون سيئة العمل من نفسه وسيئة الجزاء من نفسه ، ولا ينافى أن يكون الجميع من الله قضاء وقدرا .

ولكن هو من الله عدل وحكمة ومصلحة وحسن ، ومن العبد سيئة وقبح [1] .

وعلى هذا الضوء يمكننا النظر فى خمسة اطلاقات اشتملت عليها الآيتان :

١ ـ نسب المشركون الحسنة إلى مشيئة الله ، وهذا هو الإطلاق الأول .

٢ ـ ثم نسبوا السيئة نسبة اعتبارية تشاؤمية إلى مشيئة رسول الله وهذا هو الإطلاق الثانى .

وفى هذين الإطلاقين خلط وجهل يفسره حال المشركين وما يتصفون به من غرض سيء وعقيدة فاسدة فهم قد نسبوا إلى الله ما يعجبهم ويسرهم لا اعترافًا

---

(١) كتاب شفاء العليل فى القضاء والقدر والتعليل ، لابن القيم ص ١٥٩ ـ ١٦٠ باختصار شديد ، طبعة أولى الخانجى ١٣٢٣ هـ .

بفضل الله وإنما بقصد تجريد النبى ﷺ من هذا الفضل ، بينما نسبوا ما لا يعجبهم إلى رسول الله ﷺ وهم يقصدون أن الله لم يفعل هذا السوء بهم لا أدبا منهم فى الخطاب مع الله ، ولكن بقصد الإساءة إلى رسول الله ﷺ .

ومن هنا كان الإطلاقان غير مقبولين لفساد القصد فيهما ، حيث قصد بهما الإساءة إلى رسول الله ﷺ ، وخلا الإطلاق الثانى من نسبة الفعل إلى مشيئة الله ؛ ولذلك جاء الإطلاق الثالث للرد على هذا الفساد من وجهيه .

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا الإطلاق للرد على المنافقين من الناحيتين ، من ناحية قصدهم الإساءة إلى رسول الله ﷺ حيث نسب الله لنفسه كل ما يحدث لهم ، أى أن الذى زعمتم أنه من رسول الله ﷺ إنما هو من الله الفعال لكل شيء ، ومن ناحية أخرى فأنتم بزعمكم الكاذب هذا قد عطلتم مشيئة الله عن العمل وذلك محال . وواضح أن هذا الإطلاق القرآنى الصحيح روعى اعتبار المشيئة الإلهية المحضة .

أما الإطلاق الرابع فقد روعى فيه الاعتباران معا ، مشيئة الله ومشيئة النبى باعتبارها مخلوقة لمشيئة الله ، ولذلك جاء التعبير عنهما بمشيئة الله وحدها .

قال تعالى : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ .

والحسنة هنا قد تحدث بسبب توفيق الله للعبد لطريق الخير ، ويرشح لذلك الإطلاق الخامس الذى سيأتى ، فهو مقابل لهذا الإطلاق وفيه ما يصيب العبد من السيئات إنما هو بسبب ذنوبه ؛ لكنه لما كان التوفيق للخير والطاعة هو من خلق الله وتقديره فقد علمنا القرآن أن ننسب ما يصيبنا من الخير إلى مشيئته على سبيل الحقيقة وعلى سبيل الأدب مع الله .

كما يمكن نسبة ما يصيبنا مما لا نحب إلى الله سبحانه إذا اقتضى الموقف ذلك كما حدث فى الإطلاق الثالث الذى سبق .

١ ـ إطلاق يراد منه مشيئة العبد وحده ، وخطاب النبى فيه خطاب لأمته وتعليم لها . قال تعالى : ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ .

وغنى عن البيان أن كل ما يصيب العبد بمشيئة الله لكنها هنا تنسب إلى العبد أدبا مع الله ، وإن كانت هذه النسبة تمثل حقيقة من الحقائق التى خلقتها مشيئة الله ، وتلك الحقيقة هى قدرة العبد على أن يشاء بمشيئة الله ويختار بمشيئة الله ويسعى لتنفيذ اختياره بمشيئة الله ، ومع أنه فى اختياره ومشيئته ومسعاه وقدرته وحريته مراد لمشيئة الله ، إلا أن هذه النعم تشكل مشيئة حقيقية للإنسان يمكن نسبة الأفعال إليها فى إطار الاعتقاد السليم والأدب الواجب مع الله سبحانه .

على أن الفيصل الأساس فى هذه الإطلاقات هو كما قلنا فى إدراك الفارق بين الإطلاق المتعلق بالمشيئة الربانية اللامحدودة وبين الإطلاق المتعلق بالمشيئة الإنسانية المخلوقة . وهذه قاعدة عامة ينبغى رعايتها فى كل الصفات التى تطلق على الخالق بمعناها المطلق ، وتطلق على العباد بمعناها المحدود . فمثلا لله قدرة وعلم وإرادة وسمع وبصر ومشيئة ، وكلها صفات مطلقة قديمة غير محدودة فى كمالها .

وللإنسان أوصاف تسمى بمثل هذه الأسماء ولكنها صفات محدودة حادثة لا تعمل إلا فى مجال خاص هو المجال الذى أراده الله ، ولا حرج من إطلاق هذه الأوصاف على الإنسان فى إطار ما قدمنا من فقه واعتقاد ، والقرآن نفسه ملىء بهذه الإطلاقات .

وضوح النصوص القرآنية فى المشيئة رد على شبهة :

ها نحن قد رأينا وضوح هذه القضية فى القرآن الكريم وضوحا تفصيليا وكاملا ، فقد تناولت نصوص القرآن المشيئة الربانية مستقلة فى كمالها وإطلاقها ، وتناولت المشيئتين معا ، كما تناولت العلاقة بين المشيئتين واحتمالاتها ، وسجل القرآن الكريم

فى النص السابق مباشرة استنكاره لأى لبس أو خلط يقع بين المشيئتين ، وراعى هذا النص الاعتبارين ، واستعمل إطلاقاتها فى مجال متجاور تأكيدا لهذا الوضوح ومن قبل ذلك تناولت نصوص القرآن قواعد التيسير والمعونة والاستدراج كما أوضحت الأحاديث النبوية أية شبهة تعرض للقضية مبينة أوجه العدل والرحمة والحكمة بما لا يدع مجالا لاتهام القرآن بعدم الإفصاح عن نفسه بطريقة واضحة وكافية .

نقول ذلك بمناسبة ما غلب على ظن الكثيرين من أن النصوص الدينية لم تعالج هذه القضايا بالدرجة الكافية ، ويبدو أن بعض الخاصة قد تأثروا بهذا الظن ، ومثال ذلك ما ورد فى كتاب « دستور الأخلاق فى القرآن » ومع أنه كتاب ممتاز ألفه فضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز ﷺ الذى عُرف بعلمه الغزير وورعه وتقواه .

غير أنه ورد فى الكتاب المذكور عبارات لا تتفق مع معالجة القرآن الواضحة والصريحة لهذه القضية كما لمسنا بأنفسنا فيما قدمناه من نصوص .

ومن هنا لزم التنبيه إلى هذه العبارات ، خصوصا لما للمؤلف من ثقة واحترام فى نفوس إخوانه وأبنائه ، فقد تمر هذه العبارات بجواز الثقة دون تمحيص .

ونود أن نقول : إن تنبيهنا على هذه العبارات لا يغض أبدا من القيمة العظيمة لهذاالمؤلف الجليل ، وتلكم هى العبارات دون إطالة فى التحفظات والمقدمات .

قال عليه رحمة الله :

« والمسألة التى يبقى علينا أن نعرفها ، والتى تفرقت المدارس الإسلامية بصددها بطريقة واضحة ، هى :

عندما يطلب الله منا أن نستخدم قدرتنا على الاختيار ، بعد أن يكون قد وضع رهن تصرفنا هذه الموارد العامة والخاصة ـ هل يتخلى الله عنا تماما ؟

ألا يتدخل لمصلحة أى جانب ؟

أو أنه يدخل هنا ـ دون علم منا ـ دافعا معينا ، علويا ، ومباشرا وفوريا فى صورة مساعدة ، أو ترك ، أو دعم ، أو قدر ضئيل من الطاقة ، أو فعل لا يقاوم من باب الفضل أو الابتلاء ، يوجه ـ على تنوع ـ مؤشر نشاطنا ويحدد حركته فى اتجاه أو آخر ، دون أن تحدس به مطلقا .

تلكم هى المسألة التى لم يفصح فيها القرآن عن نفسه بطريقة واضحة وكافية ، بل يبدو أنه قد التزم من هذا الجانب نوعا من الحذر المقصود ذكر له الإجابة فيما بعد : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

لقد أعدنا قراءة هذه العبارات عسى أن تكون الأسئلة التى أثارها المؤلف أمورا افتراضية سيقرر جوابها ، أو إشارة إلى آراء المدارس العقلية بقصد حكايتها أو الرد عليها . لكنا فوجئنا بإنهاء قضية هذه الأسئلة نهاية غريبة ، حيث أغلق الباب دون الإجابة عليها ؛ بسبب أن القرآن لم يفصح فيها عن نفسه بطريقة واضحة وكافية .

وهنا تحول الأمر إلى اتهام للقرآن بالغموض ، ولا نخفى أننا حاولنا أن نجد تفسيرا يسوغ عبارة المؤلف ، فلما لم نجد اتجه اتهامنا للترجمة مع ثقتنا فى دقة المترجم ، لكن لم تلبث عبارة المؤلف أن استرسلت مرة أخرى ترسخ ذات التهمة مما جعلنا نعفى الترجمة من أى اتهام .

ذلك أن المؤلف اعتبر هذا الغموض نوعا من الحذر المقصود .

ثم مضى فى نفس الطريق متخذا من إعراض السلف عن البحث فى المشيئة الإلهية والقدر من جهة ، ومن التناقض بين العدالة والقدرة الإلهية المطلقة « كذا » من جهة أخرى دليلا على صمت الوحى وعدم استطاعة حل هذه المشكلة عن طريقه .

ولشد ما كانت الدهشة كيف جرى قلم فضيلة المؤلف ﷾ بهذه العبارات ، اللهم إلا إذا كان يقصد بحث الكيفية التى تعمل بها مشيئة الله فى مخلوقاته ،وتلك

لعمرى قضية ما يخطر بالبال أبدا أن تكون موضع بحث وتفصيل ؛ لأنها من الحقائق العليا التى تتعلق مباشرة بصفات الله ، وغنى عن البيان أنها أمور لا يستطيع العقل الإنسانى المحدود أن يُسْتكنَهَ أسرارها ، ولا أن يحيط بها فهى خارجة عن منطقة عمله ولا تخضع للمجال الذى يملك العقل أن يفكر فيه ، وما نظن أن المؤلف الجليل عليه رحمة الله يحاول أو يقصد أن يخرجها القرآن من نطاق الغيب حتى يتهمه بالغموض المتعمد والحذر المقصود .

أما آثار المشيئة ، وهى مانرجح أن يكون المؤلف يعنيه ـ إذ لا يعقل أن يعنى غيره ـ فقد وضح القرآن موقفه منها توضيحا كافيا يدع الذى لا يدركه عرضة لأن يكون تحت العتاب الشديد بمثل قوله تعالى : ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ .

لكن الذى نستنكره أشد الاستنكار من العبارات التى نناقشها هو : أسئلة المؤلف التى بدأها بقوله : هل يتخلى الله عنا تماما ؟ وبعد عدة أسئلة أخرى يقول : تلكم هى المسألة التى لم يفصح فيها القرآن عن نفسه بطريقة واضحة وكافية . فهل حقا يشعر قارئ القرآن ببقاء مثل هذا السؤال الخطير فى نفسه دون أن يجد عليه جوابا فيما يقرأ من كتاب الله ؟ ، كتاب الله الذى لا تزال آياته تهتف : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ ، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ .... إلخ .

ولا نذكر من السنة إلا حديثا واحدا كرمز لاتجاه السنة حيث لم يتعرض لها النص الذى نناقشه .

روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن ابن عمر مرفوعا قول رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس »[1] .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى كتاب القدر ، وأخرجه أحمد فى المسند ج٢ ص ١١٠ وأخرجه مسلم فى كتاب القدر باب تعريف الله تعالى القلوب .

فهل بعد هذه النصوص ـ وأمثالها فى القرآن والسنة كثير ـ يجوز أن يثار هذا السؤال : هل يتخلى الله عنا ؟ بل « ويتخلى تمامًا » كما هى عبارة الدكتور ؟ ثم يعقب ذلك بغموض القرآن فى الإجابة على هذا السؤال ، والأسئلة الأخرى التى آثارها المؤلف .

ونحن نسأل فى النهاية : هل يبقى شيء من الوجود لأى موجود إذا تخلى الله عنه ؟

وهل خرجت مشيئة الإنسان عن دائرة المخلوقات حتى يتخلى عنها خالقها ؟

اللهم فلا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ولا أقل منها يا قيوم الوجود يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يؤوده حفظ كل موجود ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ويبقى وفاء وإنصافا أن نسأل الله مزيدا من رحمته الواسعة ورضوانه وعفوه لنا وللعالم الورع التقى الشيخ محمد عبد الله دراز الذى بذل مجهود الأبطال فى خدمة القرآن بكتابه المذكور ، لكن الإنسان هو الإنسان ، والكمال لله وحده ، ولا عصمة ولا عصمة إلا لمن عصم الله ، وحيا الله أهل العلم والفضل من الذين ترجموا وأخرجوا الكتاب ، ورجاؤنا فى الله أن يوفقهم فى طبعات قادمة لإلقاء نظرة فاحصة فى هذا السفر الجليل النافع ، ولهم ولنا من الله الأجر والمثوبة والتوفيق .

*****

obeikandl.com

الفصل الخامس

النهى عن الكلام فى القدر

حرص الإسلام على تربية الأفراد والمجتمع والأمة على المحافظة على سلامة عقائدهم وأفكارهم وأوقاتهم ، وجمع ذلك كله فى صرفهم بحسم عن الجدل العقيم ، والكلام البيزنطى السقيم ، وفى مقدمة ما نهى المسلمون عن الجدل فيه ، القضاء والقدر .

قال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] .

روى الإمام أحمد قال : حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان الثورى ـ بسنده ـ عن أبى هريرة قال : جاء مشركوا قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر فنزلت : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (١) .

وقال البزار : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ما نزلت هذه الآيات : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ إلا فى أهل القدر .

وروى أحمد أن الرسول ﷺ خرج ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر ، وكأنما تفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب فقال : « **وما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من قبلكم** » (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : قيل له أن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلونى عليه ـ وهو أعمى ـ قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ؟قال :

---

(١) وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجة من حديث وكيع عن سفيان الثورى به .

(٢) أى غضب ﷺ فاحمر وجهه احمرارا يشبه لون عصير حب الرمان .

والذى نفسى بيده ، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته فى يدى لأدقنها ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كأنى بنساء بنى فهر يطفن بالخزرج تصطفق أليانهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذى نفسى بيده ، لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدَّر خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا** » [١] .

وأخرج الإمام أحمد عن نافع قال : كان لابن عمر رضي الله عنهما صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغنى أنك تكلمت فى شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إلىَّ ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر** » [٢] .

وأخرجه ابن عبد البر فى العلم عن النزال بن سبرة قال : قيل لعلى رضي الله عنه يا أمير المؤمنين : إن ههنا قوما يقولون : إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون ، فقال : ثكلتهم أمهاتهم ، من أين قالوا هذا ؟ قيل يتأولون القرآن فى قوله : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١] .

فقال على : من لم يعلم هلك ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يأيها الناس : تعلموا العلم واعملوا به وعلموه ، ومن أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألنى ، بلغنى أن قوما يقولون : إن الله لايعلم ما يكون حتى يكون لقوله : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَٰهِدِينَ﴾ .

وإنما قوله : ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ : حتى نرى من كتب عليه الجهاد والصبر ، إن جاهد وصبر على ما نابه وأتاه مما قضيت عليه [٣] .

---

(١) أحمد فى مسنده ج١ ص ٣٧٠ .

(٢) أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والحاكم ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب .

(٣) كذا فى الكنز ج١ ص ٢٦٥ كتاب حياة الصحابة ج٣ ص ٤٠ .

قال ابن كثير : وتفسير العلم بالرؤية ؛ لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله : « إلا لنعلم » إلا لنرى [١] .

إن هذه النصوص مجتمعة ـ على تفاوت ما بين أسانيدها من قوة ـ تدل على خطورة الكلام فى القدر ، كما تدل على تحاشى الصحابة لأولئك الذين يتورطون فى هذا النوع من الحديث ، فما أسباب ذلك وما هى أبعاد هذه القضية ؟

لدينا ثلاث ضوابط محددة وواضحة ، وهى مناسبة إذا أحسن الالتزام بها كى تكون فى مجالات الدراسة والتعليم أساسا صالحا للكلام عن القدر والمشيئة ، وضابط واحد رابع فى المجال العام وهذه الضوابط [٢] :

أ ـ الالتزام بنصوص القرآن والسنة فى معالجة الموضوع مع البعد عن اى تفسير لا يحتمله النص .

ب ـ الإيمان بالغيب فيما يمس الصفات ، واستعمال آثار المشيئة كوسائل للتوضيح .

جـ ـ الانطلاق من مخالفة عمل المشيئة الإلهية لعمل المشيئة الحادثة امتدادا لقاعدة « المخالفة للحوادث فى الذات والصفات » .

د ـ عدم شغل العامة بهذه الموضوعات ، وعند الحاجة إلى طرقها تؤخذ النصوص القرآنية أو النبوية نتائج مسلمة ، وعلى الجميع أن يتعودوا على الاقتناع بها دون السماح بإثارة جدليات حولها .

---

(١) تفسير ابن كثير أوائل سورة العنكبوت .

(٢) علاقة هذه الضوابط بالتنمية والإيجابية : هو النهى عن ضياع الوقت فيما لا طائل من ورائه عن سلامة العقيدة .

وواضح أن الضوابط الثلاثة الأولى خاصة بالمجالات المذكورة فى المعاهد والجامعات أو الحلقات والندوات والمؤتمرات العلمية ، أو الدورات التدريبية وما يماثل هذه المجالات التى تحكمها لوائح أو قواعد منظمة فى البحث والتلقى والدراسة ، وسنتناول هذه الضوابط كلا على حدة .

أ) الالتزام بالقرآن والسنة مع البعد عن أى تعسف فى التأويل :

من المسلم أن هناك موضوعات ليس فى قدرة العقل الإنسانى أن يستقل بمعرفتها فضلا عن تقرير حقائقها وهذا الموضوع الذى بين أيدينا فى الذروة من هذه الموضوعات ؛ لأنه متعلق بالله سبحانه ، وإذا لم يكن منهاج الدراسة مقتفيا أثر القرآن والسنة بدقة ، مع وجود طرائق عقلية غير منضبطة من وضع البشر امتلأت بها ساحات البحث والدراسة فى مجالات ماوراء الطبيعة ، فلا شك حين نفتقد هذا العاصم من الكتاب والسنة أن هذه الطرائق الوضعية ستزحف على أساليبنا فى البحث والدراسة ، والعقل الإنسانى قابل بطبعه للأخذ والعطاء ، وحينها سنضل الطريق الصحيح ، ولن نصل إلى حق أو صواب ، فضلا عن فساد الاعتقاد ، وما يتعرض له المخطئون من سخط نعوذ بالله منه .

والمتأمل فى موقف الإسلام هذا ، لا يخالجه الشك أبدا فى أن هذا التوجيه الحاسم كان من معجزات القرآن الكريم ومن معجزات النبى ﷺ ، فمنذ فجر تاريخ الفلسفات الإنسانية حتى يومنا هذا والعقل الإنسانى لا يحسن الوقوف عند الحدود التى لا تطولها قدرته بينما هو يحسن التوقف تماما عند حدوده فى المجالات المادية ، ولهذا كان عقيما ومتناقضا فى الأولى ، ومنتجا ودقيقا فى الأخيرة .

هذا هو سر فشله فى العلوم الفلسفية سواء كانت ميتافيزيقية أم أخلاقية أم تشريعية . وهذا فى الوقت نفسه سر نجاحه فى العلوم التجريبية والمادية التى عرف كيف يطبق المنهاج العقلى السليم فيها ؛ لأنها هى المجال الطبيعى الذى يصلح لعمله .

وكانت النتيجة الحتمية هذا التفاوت المذهل بين تطور العلوم المادية وجمود وتحجر العلوم الفلسفية حتى أدرك الجميع ـ وفى مقدمتهم فلاسفة الغرب نفسه ـ أن عضلات العالم اليوم أقوى كثيرا من عقله وأخلاقه ، ولا علاج لهذه الظاهرة إلا بالعودة إلى منهاج الإسلام قرآنا وسنة ، والتزام نصوص الوحى فيما لا يستطيع العقل الاستقلال بإداركه من علوم وفى مقدمتها علوم الاعتقاد والتشريع .

على أن الالتزام بنصوص الوحى يحكمه ضابط آخر هو التحفظ الشديد فى معرفة المقصود الحقيقى لهذه النصوص حتى لا نقع فيما وقع فيه بالجهل أولئك الذين حكت لنا قصتهم الآثار المروية عن الإمام على كرم الله وجهه أو عن ابن عباس حين التبس عليهم فهم قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ ، فقالوا قولتهم السيئة : « إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون » ، فردهم على بن أبى طالب إلى الصواب حين أفهمهم أن المقصود بالعلم هنا هو العلم الناتج عن الرؤية أى حتى نرى كما سبق بيانه .

ولعله يتضح لنا من النصوص التى أوردناها بهذا الخصوص سر من أسرار عظمة الإسلام حين نجد هذا الفقه معمولا به ومتعارفا عليه بين كبار الصحابة كعرف سائد فى مجتمعهم ، بمعنى أن الرسول ﷺ ألح بهذه الحقيقة على أصحابه حتى أصبحت جزءًا أصيلا من معلوماتهم بحيث لم يتجاوزه أحد حتى فى أواخر عهد الصحابة من أمثال ابن عباس وابن عمر . بل كانوا يدافعون عن هذا المنهاج أيما دفاع ، فابن عباس وهو الذى كف بصره ، يريد أن يدافع بيديه وأسنانه عن منهاج الالتزام بنصوص الوحى ، وابن عمر يقاطع الصديق ويكتب إليه بذلك .

ب ـ الإيمان بالغيب والاستعانة بالآثار كوسيلة للتوضيح :

الإيمان بالغيب كما ورد : هو المنهاج العملى الدقيق والصحيح بكل ما تحمله هذه الكلمات من معان .

وتفصيل ذلك مع مراعاة الإيجاز : أن العقل الإنسانى نعمة من الله خلقها فى الإنسان كما خلق له بصراوسمعا وشما وذوقا ومع التغاير فى الخصائص والوظائف لهذه النعم فهى جميعا مخلوقة محدودة يحكمها الحدوث بمجالاته المحدودة . وإذا كانت قدرة العين أن تبصر الشيء بوضوح على مسافة معينة فإنها لن تستطيع بعد هذه المسافة أن تميز الأشياء بوضوح ، وبُعْدٍ آخر ستختفى صور الأشياء الصغيرة وتتلاشى من العين .

وللعقل مجال يعمل فيه ما ينبغى أن يتخطاه ، ومجال العقل فسيح جدا فهو يعمل عملا سليما ومنتجا فى أية زاوية من زوايا الكون حين يستكمل لنفسه وسائل البحث والدرس ، ومن هنا كانت آثار القدرة الإلهية مثلا موضوعا لعمل العقل فإذا ما اتصل الأمر بالغيب فقد العقل كل صلاحياته وأصبح عمله مجرد ظنون وأوهام لا تغنى من الحق شيئا ، فإذا تعلق الأمر بذات الله وصفاته انتهى الأمر تماما بالنسبة لصلاحيات العقل حيث تصبح مجرد الظنون والأوهام ضربا من التصور الكاذب المخالف للحقيقة بكل يقين .

وهنا لا يملك العقل إلا وسيلة الإيمان بالغيب لتكون النافذة التى يطل منها على الحقيقة دون محاولة منه للتدخل فى قليل أو كثير .

لذلك نستطيع الاعتماد على أمرين اثنين فيما يتعلق بالكلام فى المشيئة والقدر :

أولهما : الوحى « القرآن والسنة » ، كما سبق بيانه فى الضابط الأول .

وثانيهما : آثار المشيئة فى الخلق وفى مشيئة الإنسان وعمله .

ومن هذين الأمرين تتكون معارفنا فى حدود ما أمر الله به من عقيدة تتصف بصفتين ، أنها ترضى الله سبحانه ، وأنها مطابقة للحق والصواب وهذا مبتغى ما يصل إليه الإنسان .

وقبل أن ننتقل إلى النقطة التالية نود أن نؤكد ، أن أسلوب الفلاسفة ـ الذى لا يحسن وضع ضوابط للعقل ، بل يسمح له بالشتات فى مجال غير منتج ـ أسلوب غير علمى ؛ لأنهم يستعملون الأداة فى غير موضعها مثلهم كمثل الذى يحاول أن يرى بعينه المجردة مالا يمكن أن تراه من أبعاد ، أو كربان سفينة حمولتها ألف طن فأصر على تحميلها عشرة آلاف أو عشرة ملايين من الأطنان ، وإذن فالمنهاج الإسلامى يتفق مع المنهاج العلمى الصحيح ، بينما فقد واضعوا النظريات الفلسفية هذا الميزان .

وعلى ضوء هذا البيان يمكننا أن نتأمل بعض الحكمة على قدر ما تتفتح لها قلوبنا وعقولنا من جعل الإيمان بالغيب أول وصف من أوصاف المتقين فى أول سورة بعد فاتحة الكتاب .

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ .

[البقرة:١ ـ ٣]

جـ ـ مخالفة الحوادث :

« مخالفة الله سبحانه للحوادث فى ذاته وصفاته » من أهم المنطلقات الصحيحة التى تعين على تجنب الخلط واللبس فى قضية المشيئة ، وهى تقطع الطريق كليًّا على الذين يتورطون بالقول فى القدر والمشيئة ، إذ كيف يتم عقد مقارنة عن طريق المواجهة بين مشيئة حادثة مخلوقة منحت بعض الإمكانات المحدودة وبين مشيئة قديمة لا أول لوجودها ولا حدود لإمكاناتها وهى المانحة والخالقة والمعطية ؟ وما معنى عدم المماثلة للحوادث إذا أمكن حدوث المزاحمة بين المشيئة الخالقة والمشيئة المخلوقة ؟ أى هل يتصور أن تصطرع المشيئتان كما يصطرع مشيئتان حادثتان ، فأيتهما كانت الأقوى كان لها الفوز والغلبة ؟

وإذا كان الجواب بالنفى ـ وهو حتما كذلك ـ فعلى أى أساس إذن كانت شبهة الجبر والاختيار وهى خلاصة المحك فى قضية القدر والمشيئة ؟

إن وجود هذه القضية من الأساس لا مسوغ له البتة إذا نحن أحسنا الانطلاق من هذا المنطلق ، أعنى منطلق المخالفة للحوادث .

ولننظر فى آثار المشيئة الإلهية وهى ـ أى الآثار ـ ما نملك النظر فيه بلا تحفظات أو قيود ، ولننظر قبل ذلك فى آثار مشيئتنا لنرى أى خداع وأى غرور قد انطليا على المتكلمين فى القدر والمشيئة .

إننا حين ننظر فى مشيئتنا وفى حدود صلاحياتها ندرك بسهولة وبسرعة أن أى تجاوز منا لحدود هذه الصلاحيات يوقف مشيئتنا حائرة عاجزة ، فإذا نحن تأمَّلنا بعض آثار المشيئة العليا سطع نور الحق فى قلوبنا واستنارت بصائرنا باليقين ، ولن يبقى فينا فراغ يتسع لشبهة من هذا القبيل .

خذ من الكون الواسع الممتد الذى تهيمن عليه مشيئة الله سبحانه مثالا ، المثال الذى سنأخذه صغير جدا بالنسبة إلى سعة الكون ، إنه هباءة اسمها : الأرض ، وخذ من فوق هذه الهباءة ذرات تعيش على سطح قشرتها مبعثرة تسمى : بعوالم الحيوان ، وخذ من هذه العوالم واحدا منها اسمه الإنسان . ودعك من عوالم الحيوان كلها واقتصر على الإنسان وحده ، ولنتأمل بعض آثار المشيئة الربانية فيه :

وهبته الوجود والحياة ، عقله ، سمعه ، بصره ، شمه ، ذوقه ، إحساسه ، قلبه ، تنفسه ، غذاءه ، شرابه ، بيانه ، علمه ، دينه ، أخلاقه ، كماله ، هداه ، مشيئته ، اختياره ، وغيره وغيره مما لا يدخل تحت حصر: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] .

ويقدر الله لخلقه من هذه النعم الكثيرة الزاخرة ما يشاء ، لكل إنسان رزقه ، لا يشغله حال عن حال ، ولا أحد عن أحد كل نفس على حدة لها مع المشيئة شأن : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود :٦] .

مشيئة لا يحكمها الزمان والمكان ، بل هى تحكمهما وغيرهما فى شمول وتفصيل

وحكمة : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

فى الآيتين الأخيرتين اللتين استشهدنا بهما عموم يشمل الإنسان وغيره ، فلنذكر أننا لا نتكلم عن عمل المشيئة فى الكون كله ، وإنما أخذنا من الكون هباءة ، وأخذنا منها ذرات تعيش على قشرتها ، وتركنا الكثير الكاثر منها لنجترئ بأنفسنا ، وحتى عن أنفسنا اكتفينا بالقليل من آثار المشيئة فينا ؛ لأن الكثير لا يمكن حصره وإحصاؤه ، ولم نذكر من هذا القليل إلا رمزه وعنوانه ، فما بالنا إذا تصورنا ـ ونحن عاجزون عن ذلك ـ آثار المشيئة فى الكون كله . ليس أمامنا إلا أن نسجد لله قائلين : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

إنه لا يمكن أن نقول بعد ذلك أمام هذه المشيئة المطلقة الكاملة الشاملة شيئا ما ، عن مشيئة هذه الذرات المبعثرة فوق قشرة هباءة لا نسبة بين صغرها وبين عظمة هذا الوجود . ولعلنا بعد نظرتنا فى هذه الآثار نستطيع الحكم باستحالة التجانس فى أسلوب التأثير والعمل بين المشيئة اللامحدودة ، وبين مشيئة ذرة عاجزة ، ومعروف أن المقارنة لا تتم إلا بين نظيرين أو متجانسين . فهل يبقى بعد ذلك تصور صراع بين المشيئتين حتى يتفرع عن هذا التصور مشاكل فكرية حول القدر والمشيئة أو حوار يدور حول الجبر والاختيار .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ ـ ٨] .

هذه الضوابط الثلاثة هى :

- الالتزام بنصوص القرآن والسنة .
- والإيمان بالغيب مع حرية النظر فى عالم الشهادة [١] .
- والفهم الدقيق « لمخالفة الله الحوادث ذاتا وصفات » .

---

(١) عالم الشهادة يقابل عالم الغيب الذى يمكن إدراكه بالحواس .

تسمح بالكلام فى القدر والمشيئة فى إطار التعليم والدراسة ، وفى غير هذا الإطار لابد من صرف العامة عن الانشغال بأى حوار من هذا القبيل ، وهذا هو التحفظ الرابع أو الضابط الذى مضى عليه السلف بيقظة وحسم ، فللعقول طاقاتها ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم أصل مرعى إذا أردنا الخير للناس .

وأى خروج عن هذه الضوابط سواء فى المستوى الخاص أو العالم يعرض أهله لتنكب الصراط المستقيم ويفضى بهم إلى مالا تحمد عقباه .

وما كان ينقص فرق الاعتزال أو القائلين بالجبر أو الاختيار المطلق أو المقيد علم أو فكر ولكن كان ينقصهم الالتزام بالقواعد التى بينها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وبعد ، فهذا نموذج قصير وموجز يعطينا فكرة حسنة عن التفكير السلفى الهادئ حين يكون ملتزما فى مناقشته لهذه القضية ، نورده بعبارة الإمام النووى فيما يلى ، يقول ﷺ : وأما قوله ﷺ : « **والشر ليس إليك** » .

فاعلم أن مذهب أهل الحق من المحدثين والفقهاء والمتكلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين أن جميع الكائنات خيرها وشرها ، ونفعها وضرها كلها من الله سبحانه وتعالى وبإرادته وتقديره .

وإذا ثبت هذا فلابد من تأويل هذا الحديث فذكر العلماء فيه أجوبة :

أحدها : وهو أشهرها قاله النضير بن شميل والأئمة بعده .

معناه : والشر لا يتقرب به إليك .

والثانى : لا يصعد إليك إنما يصعد الكلم الطيب .

والثالث : لا يضاف إليك أدبا فلا يقال يا خالق الشر كما لا يقال يا خالق الخنازير وإن كان خالقها .

والرابع : ليس شرا بالنسبة إلى حكمتك فإنك لاتخلق شيئا عبثا والله أعلم [1] .

---

(١) ص ٥٦ : كتاب الأذكار النووى ـ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٣٥٦هـ .